بحث الثنائية ليس ترفا عقليا

● والبحث فى نظرية « الثنائية » ليس ترفا عقليا ، ولا أمرا هامشيا ، ولا يتقوقع فى دقة تخصصية :

فمن الاعتراضات الشكلية على بحث مشكلة « الثنائية » ما أثاره الأستاذ عبد القادر المغربى معترضا على آراء الأب مرمرجى — بقوله :

« واللغة العربية الى غير هذا — من الخدمات المتواضعة — أحوج ، والى نوع آخر من الغذاء الاصلاحى انجع وانضج » . (١)

وهذا فى رأيى الغاء فج للمسألة من أساسها ، وغلق لباب بحث تحتاجه العربية للتأصيل والوصول الى الحقيقة فى مسائل طال بحثها فى غير ما تكاتف وامعان ، فبقى الخلاف معلقا لها ، والضباب مخيما حولها .

ولذا يرد الأب مرمرجى على الأستاذ المغربى فى موضوعية مشـــوبة بالقسوة ، حين يصفه بأنه : « من المتمسكين بالقديم ، وغير الواقفين على كنه (الثنائية والألسنية السامية) ، لجهله — ما عدا العربية — بقية الألسن السامية وقواعدياتها وأسرارها وتاريخها ، وما تفترض مقارنتها من المعلومات والأساليب التقنية ، وهذا مما يؤسف عليه ، فان الأستاذ — مع كونه اماما فى العربية — يعسر عليه المناقشة فى ذات الموضوع » .

ثم يسوق الكلام الى كل معارض للثنائية ، بقوله : « فكأنى بحضرات ائمتنا الأجلاء ، يؤثرون بقاء المعجمية على ما هى عليه من الاضطراب ، والتضارب ، والتنافر ، والتناقض فى اشتقاق الألفاظ وتطور معانيها ، على أن تنسق ويعلل سياقها ، فيتجلى فيها الانسجام والتساوق والمنطقية » .

ثم يعود الى الحدة ، والثورة على المألوف ، ويلتمس العذر للأقدمين بقوله :

« وذلك لأن الوسيلة المقترح استخدامها ، لبلوغ هذا الأرب ، هى : (الثنائية ، والألسنية) وهو ما لم يألفوه ، فلا تستمرئه ذهنيتهم التقليدية .

---

(١) معجميات عربية سامية ص ١٠٨

ولا أغالى اذا جزمت بأن نفس اللغوين الأقدمين ـــ الذين تفردوا بالذكـــاء والعبقرية ـــ لو عاشوا فى زماننا ، واتقنوا معرفة اللغات السامية ، ووقفوا على تقدم العلوم الالسنية فى الأصقاع الغربية ، لجحدوا كثيرا من نظرياتهم ، واعتنقوا المذاهب المستحدثة ـــ على أن ما تعذر على القدماء عمله ، من الهين اليوم على شيوخ اللغة اجراؤه فى معاهدهم ، ولا سيما فى وسط المجامع اللغوية ، وبنوع أخص بين أعضاء لجان وضع المعاجم الحديثة » (١) .

ومن النقد الشكلى أيضا لنظرية « الثنائية » ، فى نقد كتاب « هل العربية منطقية » للأب مرمرجى . ما ذكره الدكتور أحمد فؤاد الأهوانى ، اذ وصف مثل هذا البحث بأنه « بحث خاص ، يهم المشتغلين باللغة وأصولها واشتقاقها ، ويهم المجمع اللغوى (المصرى) بشكل خاص .

ويتساءل : هل اطلع المجمع اللغوى على البحث ؟ واتخذ قرارا بشأنه أم لا .

كما يصف الثنائية بأنها هدامة للثلاثية والرباعية ، ومقوضة لأركـــان المعاجم (٢) .

ويرد الأب مرمرجى على شق الاعتراض الأول ، بأن المجمع حبذ عمله واثنى عليه ، وأنه تلقى رسالتى استحسان من صاحب السعادة المرحـــوم محمد توفيق رفعت باشا ، رئيس المجمع ، ومن صاحب المعالى عبد العزيز فهمى باشا . كما يتمنى المؤلف أن تتبنى المجامع اللغوية نظريته ، لتوافر الوسائل العلمية والتقنية والمادية ، ومؤازرة المخلصين .

ويرد على الشق الثانى بأن :

« الثنائية فى اعيننا غير هدامة الثلاثية ولا الرباعية ، ولا هى مقوضة أركان المعاجم ، انما هى وسيلة التأصيل السابق طور « التصريف » :

فالقائل بالثنائية يدع التصريف على ما هو للثلاثى والرباعى ويحصر عمله فى المعجمية ..

وفى هذا الحقل عينه لا يتوخى محق الثلاثية والرباعية من اللغة ، لكنه يرتئى بأنه : كما أن الرباعى يسوغ رده الى الثلاثى كذلك يمكن رد الثلاثى

---

(١) المصدر الســـابق .

(٢) مجلة الثقافة المصرية عدد ٥٣١

الى ثنائى ، مما ينجم عنه أن الثلاثى ليس بدء الاشتقاق ، بل الثنائى .

ويرى عمليا أن فى هذه النظرية للمعجمية فوائد جمة ، منها تجلى الانسجام والتساوق والمنطقية فى تشعب الألفاظ بعضها عن بعض .

وتوسع المعانى وتطورها ، مما هو واضـــح الفقدان فى الحالة الثلاثية الحاضرة .

فمن ثم لا خشية على المعاجم من الثنائية ، لأنها بالعكس تنشىء فيها تنظيما معقولا منطقيا .

كما أن ترتيب المعاجم الحديثة مثل : محيط المحيط ، واقرب الموارد ، والبستان ، لم يضر بالمعجمية ، بل نفعها ، وان خالف بالواقع تنظيم (القاموس المحيط ، واللسان ، والتاج) ، أو بالأحرى : قلة التنسيق فيها (١) .

غير أنى أبادر فأقول : ان بحث الثنائية ، سيضيف الى الأبحاث اللغوية فى العربية أعباء كبيرة تتطلب منا تضافر الجهود :

فسيوجب علينا ذلك من جديد دراسة تاريخ العربية ووصفها وتطورها.

وسيوجب علينا : أن نعيد النظر فيما قعده اللغويون فى بابى الاعلال والادغام ، وما أرسوه من نظريات ، وما تخيلوه من تعليلات ، وما سلموا به من أوزان :

فوزان قط بالتشديد (فع) لأنها عين الكلمة لا فعل كما ذكروا على أنها لام الكلمة ، اذا قلنا : قطع بالتشديد على وزان فعل بالتشديد .

وسنعيد النظر فى سلاسل الاشتقاقات ، وخاصة غير القياســـية منها ، لبعثها وبحثها والانتفاع بها ، للاثراء والتنمية اللغوية ، وجعلهـــا مطردة ـــ ولو على رأى الكوفيين ـــ للاستفادة من مادتها فيما تمطرنا به محدثات العصر الحديث صباح مساء ، من مدلولات اجتماعية تحتاج لألفاظ لغوية ، ويكاد هذا الجديد يصل كل يوم الى خمسين كلمة (كما ذكر المكتب الدائم لتنسيق التعريب فى العالم العربى) .

وحين تقف العربية بكماء بلهاء أمام هذا الطوفان ، سيرميها أبناؤها ـــ قبل أعدائها ـــ بالعقم ، وليست العربية عقيمة ، وانما هى ولود مرنة مطواع .

---

(١) معجميات ص ١١٣

وسنراجع ــ فى ضوء النظرية من جديد ــ الأصول الثلاثية غير السالمة (أى المضعفة والمضاعفة والمهموزة والمعتلة بأقسامها : المثال ، والأجوف ، والناقص ، واللفيف المفروق والمقرون) وكذلك مشتقاتها ، ومعالجتها فى ضوء المبادىء الحديثة (للفونولوجيا : Phonologie) .

وسيلاقى وزن (فعلل) تحفظات جديدة ، اذ لا يصلح بشكله الحاضر لقياس الأصول الرباعية خاصة ومشتقاتها عامة .

بل اننا سنضطر الى أن نزن الرباعى المضعف ، مثل : وسوس ، على فعفع ، لا على فعلل ، اذ أنه مكرر من ثنائيين .

ولن تبقى حروف الزيادة محصورة فى حروف (سألتمونيها) . اذ أمكن تشديد كل الحروف الأبجدية فى العربية .

وستحتاج الثنائيات التى انتقلت الى ثلاثيات ــ وكذلك مشتقاتها بالشد والمد ــ الى أوزان خاصة بها ، وليست على وزان (فعل) .

ولا يخيف ذلك وغيره سدنة العربية وحماتها : فمتى صحت العزائم ، وعلت الهمم ، وقوى الدفع ، وخلص الاخلاص ، فستخدم لغتنا وفخرنا ، وسنبنى كما بنت أجدادنا ، ونفعل فوق ما فعلوا .

* * *

وبعـــد

فتاريخ اللغات السامية فى أكثر نواحيه غامض ، ورمال الجزيرة العربية ــ وهى موطن الساميين ــ لا تفصح عما يصف هذا التاريخ البعيد .

ولذلك سيظل الاختلاف بين الثنائيين والثلاثيين قائما بين أبناء العــربية وغيرهم ، وسيجد كل فريق ما يبرر به القبول أو الرفض لهذه النظرية أو تلك . وسيبقى الأمر كما قال الأب (هنرى فليش) :

« ان التحليل الداخلى للكلمة العربية أو السامية ، لتمييز الأصــول الثنائية لما ينته الى نتيجة مرضية ، ولعله من المحال أن يحدث هذا . وخلاصة القول : ان مشكلة الثنائية لما تلق حلا » (١) .

---

(١) العربية الفصحى ص ٢٥١

واذا كان علماء التاريخ ، وعلماء « الأنثربولوجيا » يتنازعون الرأى فيما بينهم أشد الاختلاف ، مع خبر يروى ، أو أثر يذكر ، أو شاهد يرجح ، أو حفريات تهدى .. فان باحثى اللغات أشد حيرة ، وأكثر اختلافا ، وأوسع متاهة .. حين يصمت التاريخ ، ويندر الشاهد ، ويعز الأثر ، ويفتقد الدليل ، وتضيع الوثائق .

ولكن قياس الغائب على الحاضر ، واعمال العقل فى المأثور على قلته باعتبار أن الظاهرة تشيع .. وتقليب الفكر فيما سبق مما ذكرناه ، يجعلنى أقرر وانا مطمئن :

الى أن عددا كبيرا جدا من الأصول الثلاثية وما فوقها يرد الى أصول ثنائية الأصل .

وأن الجذور الثنائية أصيلة وثابتة فى لغتنا ، وغير قليلة .

ولعلى بذلك الجهد المتواضع أكون قد قدمت شمعة على طريق البحث ، تهدى السائرين ، وتحفز الباحثين على التنقيب عن الحقيقة ، حتى يرى الضوء جانب من جوانب العربية ، بقى زمنا فى حجاب مستور .

« والله يقول الحق وهو يهدى السبيل » (١)

* * *

(١) الأحزاب : ٤